الامتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

د. زكى نجيب محمود



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

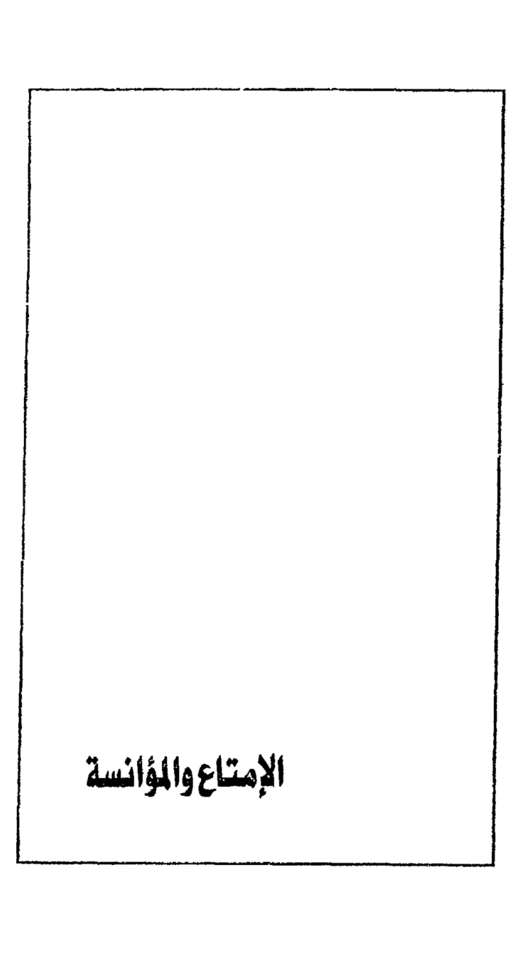
89

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

اهداءات ٢٠٠١

صيدلى/ حسن سعد الدين حجازى

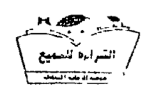
الإسكندرية


الإمتاع والمؤانسة

الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

د . زكى نجيب محمود



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة .

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الإنجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الإمتاع والمؤانسة
لأبى حيان التوحيدى
د . زكى نجيب محمود

كان أبو حيان التوحيدى بائسا فى حياته وبعد مماته . أما فى حياته فقد عاش فقيرا ، وأما بعد موته فلم يجد من المؤرخين من يترجم له ترجمة وافية ، وذلك برغم اتساع آفاقه وعمق أغواره ، حتى ليعد الفيلسوف الأديب المعبر عن ثقافة النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ؛ فاسمع هذه الرسالة الحزينة التى يختم بها الجزء الثالث من كتاب الامتاع والمؤانسة ، موجهها اياها الى صديقه ابى الوفاء المهندس الذى كان له فضل تقريبه من الوزير ابى عبد الله العارض وهو الوزير الذى قيلت فى حضرته أحاديث السمر الثقافى التى جمعت فى كتاب الامتاع والمؤانسة ـ اسمع هذه الرسالة الحزينة التى يختم بها ابو حيان كتابه هذا ، فهو يقول : « خلصنى

ايها الرجل من التكفف ، انقذنى من لبس الفقر ، اطلقنى من قيد الضر ، اشترنى بالاحسـان ، اعتبدنى بالشكر ٠٠ اكفنى مؤونة الغذاء والعشـاء ؛ الى متى الكسيرة اليابسة والبقيلة الزاوية ، والقميص المرقع ٠٠ ؟ الى متى التأدم بالخبر والزيتون ؟ ٠٠٠٠ اجبرنى فاننى مكسور ، اسقنى فاننى صد ، اغثنى فاننى ملهوف ، شهرنى فاننى غفل ، حلنى فاننى عاطل ؛ قد اذلنى السـفر من بلد الى بلد ، وخذلنى الوقوف على باب باب ، ونكرنى العارف بى ، وتبـاعد عنى القريب منى ٠٠٠ » ٠

ولعل ابا الوفاء المهندس قد اسـتجاب الى استغاثة ابى حيان فاغاثه ، بأن قدمـه الى الوزير ابى عبـد الله العارض ، فجعله الوزير من سماره ، وسامره ابو حيان ثمانى وثلاثين (١) ؛ وبعدئذ طلب ابو الوفاء من ابى حيان

(١) فى نشرة الكتاب التى اصدرها المرحومان الاستاذان احمد امين واحمد الزين ، ذكريات أربعون ليلة ، وفى المقدمة التى كتبهـا الأستاذ احمد امين ورد أن الليالى عددها سبع وثلاثون ، لكنى عددتها فوجدتها ثمانى وثلاثين ، ذلك أن الليلتين العاشرة والحادية عشرة قد ادمجتا فى ليلة واحدة ، ثم جاء العدد الترتيبى بعد ذلك يقول « الليلة الثالثة عشرة » ولم تذكر الليلة الثانية عشرة ، وقد بلغ العدد الختامى فى النشرة السالفة الذكر « اربعين ليلة » ، فاذا طرحنا الليلة الحادية عشرة المدمجة فى العاشرة ، والليلة الثانية عشرة المتروكة ، كان العدد ثمانى وثلاثين ٠ هذا من حيث عدد الليالى بحسب تقسيم الكتـاب اما من حيث عددها من حيث المحادثة ، فقد كانت ـ على حسابى ـ تسعا وثلاثين ٠

ان يسجل كل ما دار بينه وبين الوزير ، وهكذا فعل أبو حيان ، فكان من ذلك هذا الكتاب الذي نقدمه ٠

وقد حقق الأستاذ احمد امين فى مقدمته لهذا الكتاب شخصية هذا الوزير وانتهى الى انه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أمجد بن سعدان ، وزير صمصام الدولة البويهى ، وقد استوزره صمصام الدولة سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة ، وظل ابن سعدان فى الوزارة الى سنة ٣٧٥ ؛ وقد كان له ابان وزارته ندوة يجمع فيها العلماء والأدباء ، منهم ابن زرعه الفيلسوف النصرانى ، ومسكويه ، وأبو الوفاء المهندس (الذى قرب أبا حيان من مجلس الوزير) ٠

وأما أبو الوفاء المهندس ، الذى من اجله كتب كتاب الامتاع والمؤانسة ، فقد قال عنه ابن خلكان « انه أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ٠٠٠ وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان وقدم العراق سنة ٣٤٨ ، وتوفى سنة ٣٧٦ » وعاى هذا التاريخ يعلق الأستاذ احمد أمين بقوله ان ابن خلكان قد ذكر أنه نقل تاريخ الوفاء هذا من شيخه ابن الأثير ، ولكن الذى فى ابن الأثير انه عد وفاته فى حوادث سنة ٣٨٧ فاما أن ابن خلكان أحطأ فى النقل أو أن الناسخ اخطأ فى الكتابة ٠

وانه ليقال ان أبا حيان قد الف نحو عشرين كتابا ،

لكن لم يبق منها الا عدد قليل ، منهـا كتـاب « الهوامل والشوامل » (نشرة الأستاذان أحمد أمين والسـيد أحـمد صقر) و « الصداقة والصديق » و « البصـائر والذخائر » (نشره الأستاذان احمد أمين والسـيد احمـد صـقر) و « المقايسات » و « الاشارات الالهية » (نشرة الدكتـور عبد الرحمن بدوى) ـ وكتاب « الامتـاع والمؤانسـة » الذى نقدمه بهذا المقـال ، وقد ألفه لابن سعدان ـ كما قلنا ـ سنة ٣٧٤ : والظاهر أن أسبقها تأليفـا هو الهوامل والشوامل (راجع مقدمة احمد امين للهوامل والشوامل ـ ص : ى) وتبعه الامتـاع والمؤانسـة ، ثم الصداقة والصديق ، وأما الذخائر والبصائر فقد ذكر فى مقدمته أنه بدأ به سنة ٣٧٥ واتمه بعد خمسة عشر عاما ، ثم جـاء كتاب المقايسـات ، لأنـه ذكر الهوامل والشـوامل فى المقابسات ، وقد الف الصداقـة والصـديق للوزير ابن سعدان ابان وزارته ـ ووزارته من ٣٧٣ الى ٣٧٥ ·

يدور السمر فى كتاب الامتاع والمؤانسة على ليال ، لكل ليلة موضوع رئيسى يحدده الوزير بسؤال يلقيـه لكن سرعان ما يستطرد ويتشعب فيتنـاول أمورا كثيرة منوعة ، وغالبا ما يختتم « بملحمة وداع » ـ وفيما يلى موجز سريع لأهم ما دار من أحـاديث خلال الليـالى الثمانى والثلاثين ·

ـ ففى الليلة الأولى جرى السمر حول متعة الحديث ، وخصائص الحديث الجيد ، وخلاصة الرأى هنا أن الحديث

الجيد هو الذى يجرى على احكام العقل ويشتمل على فكاهة ، ويكون ذا جدة وطرافة ؛ وان الانسان ليسأم من كل شيء الا من الحديث الطلى ؛ ففى المحادثة تلقيح للعقول ، وترويح للقلب ، وتسريح للهم ، وتنقيح للأدب ؛ وأما الموضوعات العرضية التى تناولها الكلام فى الليلة الأولى ، فتحديدات لغوية تفرق بين معنى كلمة « عتيق » ومعنى كلمة « قديم » وذلك بمناسبة المقارنة بين الحديث الذى يكون فيه جديد والحديث الذى يذكر القديم ؛ « التعجب كله منوط بالحديث ، وأما التعظيم والاجلال فهما لكل ما قدم » ؛ وكذلك تناول ابو حيان بالتحديد معانى هذه الكلمات : حادث ، ومحدث ، وحديث ؛ وأخيرا ختمت الليلة بملحمة الوداع ، وهى نكتة عن بناء بنى جدارا لرجل ، وبينما هما مختلفان على الأجر ، سقط الجدار ، فقال الرجل للبناء : هذا عملك الحسن ؟ فقال البناء وهل أردت أن يبقى الجدار قائما ألف سنة ؟ فأجاب الرجل : لا ، ولكن كان يبقى الى أن تستوفى أجرتك ٠

ـ ويدور حديث الليلة الثانية حول شخصيات بارزة عندئذ فى العلم والأدب ، يصفهم أبو حيان للوزير ويقول رأيه فيهم ، فمنهم أبو سليمان المنطقى الذى يقول عنه : « أما شيخنا أبو سليمان فانه أدقهم نظرا ، وأقعرهم غوصا ، وأصفاهم فكرا ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبارة ، ولكنه ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن

استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمـز ، وبخـل بما عنده من هذا الكنز » .

ومنهم ابن زرعه ، فهو « حسن الترجمة ، صحيح النقل ، كثير الرجـوع الى الكتب ، محمود النقـل الى العربية ، جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة » ومنهم ابن الخمار ، وابن السمح ، والقومسى ، ومسكويه الذى يصفه بقوله : « فقير بين أغنيـاء ، وعيى بين أبيناء ، لأنه شاذ .. » ومنهم عيسى بن على ، ونظيف ، ويحيى ابن عدى ، ويقول عنه : « انه مشوه الترجمـة ردىء العبـارة ، ولكنه كان متأنيا فى تخريج المختلفة .. » ـ أى فى تخريج المسائل المختلفة .

فطلب منه الوزير أن يحدثه عن آراء هؤلاء العلمـاء فى « النفس » فأخذ أبو حيان يفصـل القول فى ذلك ، وملخص ما قاله أنهم متفقون على أن النفس جوهر خالد ؛ وكان من أدق ما قاله كذلك فى العلم بمسائل الحكمة أنه وسط بين اليقين الكامل وبين اليأس من المعرفة ؛ وكذلك قال فى علم الطب انه وسط بين الصواب والخطأ ، وفى الحياة أنها وسط بين السلامة والعطب ، وكذلك فرق أبو حيان بين العلم والتعليم ، « فالعلم صورة المعلوم فى نفس العـالم ، وأنفس العلماء عالمه بالفعل ، وأنفس المتعلمين عالمه بالقوة ، والتعليم هو ابراز ما بالقوة الى الفعل ، والتعليم هو بروز ما هو بالقوة الى الفعل » ـ وختمت الليلة بأربعة أبيات فى المنزل .

وفى الليلة الثالثة يدور الحديث عن بعض رجـال السوء ؛ فبهرام « رجل مجوسى معجب ذميم ، لا يعرف الوفاء ولا يرجع الى حفـاظ » وابن كخيا « رجل نصرانى أرعن خسيس ، ما جاء يوما بخير قط لا فى رأى ولا فى عمل ولا فى توسط » هكذا ٠

- وتدور الليلة الرابعة كلها تقريبا على الحديث عن ابن عباد ، يسأل الوزير أبا حيـان رأيه فى ابن عباد وما يقال فى ذمه أحيانا ، فيقول أبو حيان « ان الرجل كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسـان ٠٠ » ويمضى فى تحليل شخصيته تحليلا مسهبا ، ويقول عنه انه يمدح نفسه بشعر ثم يعطيه لمن يلقيه كأنما هو شعر قيل فيه من سواه ، فهو محب للثناء لدرجة الاسراف ، وهو مزيج من عقل وحمق ؛ ويأخذ أبو حيان فى مقارنته بابن العميد ؛ ويصف ابن عباد بمرض النفس « فللنفس أمراض كأمراض البدن » ؛ وهكذا أعطانا أبو حيان صورة مفصلة عن جوانب ابن عباد : فضائله وعيونه ، ومما ورد فى هذه الليلة كذلك ذكر لأعلام العلماء والأدباء وما يمتاز فيه كل منهم ؛ فالخليل فى العروض ، وأبو عمرو بن العلاء فى اللغة ، وأبو يوسف فى القضاء ، والاسـكافى فى الموازنة ، وابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وابن مجـاهد فى القراءات ، وابن جرير فى التفسير ، وأرسطو طاليس فى المنطق ، والكندى فى الجوهر الفرد (الجزء الذى لا يتجزأ)؛

وابن سيرين فى العبارة ، وأبو العيناء فى البديهة ، وابن ابى خالد فى الخط • والجاحظ فى الحيوان •• الخ •

ومن أصدق ما جاء فى حديث هذه الليلة ، قول أبى حيان بضرورة التثقيف لمن يتصدى للكتابة الأدبيـــة مـــع التواضع فى تقديره لنفسه ، قال : « ليس شىء أنفع للمنشىء من سوء الظن بنفسه ، والرجوع الى غيره ، وان كان دونه فى الدرجة ، وليس فى الدنيا محسوب (أى ليس فيها أحد) الا وهو محتاج الى تثقيف، والمستعين أحزم من المستبد •• » ومن لطيف ما قاله فى التفرقة بين كتاب يكتب وحديث يقال ، أن الكاتب لا يشفع لـــه خطـــأه أن يكون قد أسرع فى الكتابة ، فليس يعلم القارىء أسرعت فى كتابة ما كتبت أم أبطأت » وانما ينظر أصبت فيه أم أخطأت وأحسنت أم أساءت » •

ـ وفى الليلة الخامسة عود الى الحديث عن ابن عباد ، ثم الحديث عن أبى اسحق الصابى ؛ أما ابن عباد فقد نجح رغم عيوبه لأن أحدا لا يقول له أخطأت ، فمن كان مجدودا جعل الناس خطأه صوابا ، وأما أبو اسحق الصابى « فانه أحب الناس للطريقة المستقيمة •• وانمـــا ينقم عليه قلة نصيبه من النحو » •

ـ وأما الليلة السادسة فحديثها عن خصائص الأمم : فالفرس تقتدى ولا تبتكر ، والروم لا يحسنون الا البنـــاء والهندسة ؛ والصين أصحاب صنعة لا فكر لها ولا روية ، والترك سباع للهراش ، والهند أصحاب وهم وشعبذة .

وأما العرب فقد علمتهم العزلة التفكير ، وساعدتهم بيئتهم على دقة الملاحظة ، وهم ذوو قيم خلقية عليا .

ومن راى ابى حيان ان الفضائل موزعة بين الأمم ، واذا وصفت أمة بفضيلة أو برزيلة فلا يكون ذلك الا على سبيل التعميم فى القول ، ولذلك اذا أريدت مقارنة بين امة وامة وجب أن يفاضل بين الكامل فى كل منهما أو بين الناقص فى كل منها ؛ وان تعصب الانسان لقومه ليجعل من العسير عليه أن يقول أى الأمم أفضل من سواه ، فلكل أمة عصر تعلو فيه ثم يجىء عصر آخر عتعلو أمة أخرى . وهكذا ، وليس من الانصاف أن نقارن أمة ابان صعودها بأخرى ابان هبوطها .

على أن أبا حيان يعود فيخص العرب بالثناء ، ويتناول بحديثه اللغة العربية فيقول انه استعرض غيرها من اللغات فلم يجد فى أى منها « نصوع العربية ، أعنى الفرج التى فى كلماتها ، والفضاء الذى نجده بين حروفها ، والمسافة التى بين مخارجها .. الخ » ؛ ويتصدى أبو حيان لما قاله الجيهانى فى ذم العرب ، ليتولى الدفاع عنهم أمجد دفاع وأبلغه .

ـ وفى الليلة السابعة مقارنة بديعة بين علم الحساب والبلاغة أيهما أنفع ـ أو قل بين العلوم الرياضية وفنون الأدب ـ فقد كان هناك من فضل الأولى على الثانية ، لأن الأولى جد والثانية هزل ، والأولى مستندة الى مبدأ

موصولة بغاية وحاضرة الجدوى ، أما الثانية فزخرفة وحيلة ، والأولى شبيهة بالماء والثانية شبيهة بالسراب ولئن اكتفت الدولة بكاتب واحد ، فلا يكفيها مائة محاسب ٠

ويرد أبو حيان بقوله لا غنى للحساب نفسه عن الانشاء ؛ وان البلاغة مستندة الى عقل ، لأن بها تقام الحجة ؛ فهى تبدأ بأفكار عقلية ثم تمر خلال ألفاظ ، وأخيرا تستقر فى خط ؛ وأما أن الدولة يكفيها منشىء واحد فليس حجة على شىء ، لأننا نحتاج الى خياطين اكثر مما نحتاج الى أطباء ، ولا يدل ذلك على أن صناعة الطب دون صناعة الخياطة ، وليس صحيحا أن الكلام الملحون يؤدى المعنى لأن المعنى يتغير دائما بتغير الاعراب ٠

ـ أما الليلة الثامنة فقد رويت فيها مناقشة فلسفية دقيقة عميقة كانت قد دارت بين أبى سعد السيرافى وأبى بشر متى بن يونس القنائى فى حضرة الوزير ابن الفرات عن المنطق اليونانى والنحو العربى (وهى مناقشة وردت أيضا فى كتب المقابسات لأبى حيان التوحيدى) وخلاصة الرواية أن الوزير ابن الفرات كان قد سأل مجالسيه ذات يوم ان كان بينهم من يستطيع أن يتصدى لمناظرة أبى بشر متى فى المنطق ، فانه يقول أن « لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة والشك من اليقين الا بالمنطق » ؛ فاستجاب أبو سعيد السيرافى لدعوة الوزير ثم واجه متى فقال :

حدثنى عن المنطق ما تعنى به ؟ فقال متى : أعنى به أنه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسد المعنى من صالحه ، كالميزان ، فانى أعرف بـه الرجحان من النقصان ، فقال أبو سعيد ردا على ذلك ان صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالاعراب المعروف اذا كنا نتكلم بالعربية ، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل اذا كنا نبحث بالعقل ، وكأنما أبو سعيد يريد بذلك أن يقول ان صورية المنطق وحدها لا تعنى ، اذا لابد من معرفـة بحقائق المواد المرتبط بعضها ببعض بتلك الصور ، والتشبيه بالميزان ناقص ، لأن من الأشياء ما لا يوزن ، واذا كـان المنطق الأرسطى ملزما لمن يتكلم اللغة اليونانية فليس هو بملزم لمن يتكلم العربية .

فيرد متى قائلا ان المنطق يعنى بالمعقولات ، والناس فى المعقولات سواء ، فأربعة وأربعة تساوى ثمانية عنـه اليونان وعند العرب وعند غيرهما من الأمم على السواء ، فيعود أبو سعيد الى الكلام قائلا : ان التشبيه بأربعـة وأربعة وأنها تساوى ثمانية عند كل الأمم هو تشبيه لا يؤدى، لأن حقائق الرياضة بينة ، على خلاف المطلوبات بالعقـل والمذكورات باللفظ ، على أننا اذا كنا نعنى بالمعقـولات تلك المعانى التى يوصل اليها باللغة الجامعـة للأسماء والأفعال والحروف ، فقد لزمت الحاجة الى معرفة اللغة ، فكيف ندرس منطق اليونان دون لغتهم ، فضلا عن أننـا ننقل المنطق اليونانى عن اللغة السريانية ، والمعانى انمـا

يصيبها التحول عند الترجمة من لغة الى لغة ؟ وهنا يقول أبو بشر متى ان الترجمة عن اليونانية تكفينا في هذا الصدد ، ويعود أبو سعيد الى الرد قائلا : افرض ان الترجمة تكفينا في ذلك ، فهل اختص اليونان دون سواهم بالعقل ؟ أليس العلم مقسما بين الأمم ؟ أليس اليونان كغيرهم من الناس يصيبون ويخطئون ، ومع ذلك فليس واضع المنطق أمة بأسرها ، بل هو رجل واحد ، هذا الى أن منطقه لم يغير من العالم شيئا ، لأن الأمر مرهون بالفطرة ، وحال الناس من حيث الفطرة هي بعد ظهور المنطق كما كانت قبل ظهوره ، اننا نعلم أن عقول الناس متفاوتة فكيف تزعم أن في وسع المنطق أن يسوى بينها جميعا ؟

ويسأل أبو سعيد مناظره فيقول : هل في وسع المنطق الأرسطي أن يدلنا على معاني حرف الواو في اللغة العربية ؟ فقال له متى : هذا نحو وليس هو من شأن المنطق ، فأجابه أبو سعيد بأن المنطق هو نحو والنحو هو منطق ، فاذا كانت المعاني مشاعا بين الأمم ، فلا تكون يونانية ولا هندية ، وانما يكون الاختلاف في اللغة التي يعبر بها كل قوم عن تلك المعاني ، اذن فدراسة اللغة لا مندوحة عنها ، ويضرب أبو سعيد مثلا بالحرف في اللغة العربية : الواو والباء وحرف « في » فلكل منها أحكام تقضي بها قواعد اللغة العربية ، وليست هي

نتاجا للعقل اليونانى ، مما يبين انه لا بـد للمنطقى من دراسة اللغة التى بها يكون التفكير ، فالنحو يمس المعانى ولا يقتصر أمره على اللفظ ·

انه بغير مادة الفكرة لا يوصل الى حل لأى مشكلة ، فالمنطق فى صوريته المجردة لا يرفع خلافا بين متناظرين ولا يؤدى بصاحبه الى معتقدات بعينها ، وخلاصة القول عند ابى سعيد السيرافى أن دراسة المنطق دون دراسـة اللغة العربية لا تجدى نفعا ·

وبعد الفراغ من هذه المناقشـــة الفلسفية ينتقـل الحديث فى تلك الليلـة الثامنـة الى وصـف لشخصية أبى سعيد السيرافى والى آخرين غيره كأبى على النحوى وعلى بن عيسى وطائفة من الشعراء ، ثم يتناول الحديث مسكويه ، وابن نباتة وغيرهما ، فكأنما هى سجل حافل لحركة علمية ثقافية واسعة المدى ·

وفى الليلة التاسعة أوصاف دقيقة لصنوف الحيوان وما تتميز به ، وكيف أن صفات الحيوان موجودة مثلها فى الانسان ، اذ فى الانسان وحـده تتجمـع صفات الحيوانات كلها ، فهو اذن مختلف عنها لا بالنوع ولكن بكثرة ما فيه من صفات ، تجمعت فيه وتفرقت فى الحيوان ، فللسبع والفارة صفة الكمون ، وللذئب صـفة الثبـات ، وللخنزير صفة الحذر ، وهكذا ، وانظر مثلا الى الصفات

التى لا بد من توافرها فى القائد تجدها كلها مما يتصف به الحيوان أيضا : « ينبغى للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان : سخاء الديك ، وتحنن الدجاجة ، ونجدة الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغـــان الثعلب ، وصبر الكلب ، وحراسة الكركى ، وحذر الغراب ، وغارة الذئب ، وسمن « يعروا » ـ وهى دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء » ٠

نعم ان من أهم ما يفرق بين الحيوان والانسان أن الأول يعمل مدفوعا بالهام على حين أن الثانى يعمل بعــد اختيار ارادى منه ، لكن للانسان من الهـــام الحيوان نصيبا ، كما أن للحيوان من اختيار الانسان نصيبا ٠

وذكر أبو حيان أن للانسان أنفســـا ثلاثا : النفس الناطقة ، والنفس الغضـــبية ، والنفس الشهوانية ، وأن لكل نفس منها أخلاقها ، فمن خصـــال النفس الناطقــة أن تبحث عن حقيقة الانسان والكون والله ، وكذلـــك من وظائفها أن تضبط نوازع النفســـين الأخريين ، وبعد ذلك أخذ أبو حيان يتنــاول الفضــائل وأضدادها واحدة واحـــدة ليحـــدد مقوماتهـــا وعناصرها ، فما الحسن وما القبيح ؟ ما الصواب وما الخطأ ؟ ما الخير وما الشر ؟ ما العدل وما الجور ؟ ما الشجاعة وما الجبن ٠٠ الخ ٠

ويختتم أبو حيان القول فى الأخلاق بأن يصنف الناس من حيث أخلاقهم بحسب أمزجتهم ، فاذا غلبت الحرارة على الانسان كان شجاعا بذالا ملتهبا سريع الحركة والغضب قليل الحقد زكى الخاطر حسن الادراك ٠

واذا غلبت عليه البرودة كان بليداً غليظ الطباع ثقيل الروح ٠

واذا غلبت عليه الرطوبة كان لين الجانب سمح النفس سهل التقبل كثير النسيان ٠

واذا غلبت عليه اليبوسة كان صابراً ثابت الرأى صعب القبول ٠

ومما هو جدير بالذكر عن هذه الليلة أن أبا حيان يذكر فيها أنه قد أضاف من عنده عند الكتابة ما لم يرد فى غضون الحديث ، وذلك استكمالا للموضوع ٠

ـ وفى الليلتين العاشرة والحادية عشرة قرىء بحث عن خصائص الحيوان ، منها ما هو فسيولوجى ومنها ما هو متصل بالطباع ٠

ـ وفى الليلة الثالثة عشرة (٢) قرىء بحث فلسفى عن النفس ، فهى تعمل بغير عضو خاص (من أعضاء البدن ، ولذلك فهى لا تفسد بفساد البدن ، هى جوهر لا مادى ، وغير قابل للمقاييس الكمية ، ينتقل الحديث الى الحركة ، فهى اما من داخل : وعندئذ تكون اما حركة داخلية متواصلة واما حركة داخلية تسكن أحيانا ، أو من خارج : وعندئذ تكون اما حركة بالدفع من خلف أو بالجر من أمام ، وحركة الجسم الانسانى انما تكون بفعل نفس ، واذن فالنفس حية ، وهى جوهر قابل لأن تطرأ عليه الأضداد دون أن يتغير هو فى جوهريته ، وقوام النفس بذاتها لا بكونها حالة فى بدن ، ومن الفوارق بين الجسم والنفس أن الجسم لا يقبل صورة الا اذا زالت عنه الصورة التى كانت حالة فيه ، لأن الضدين لا يجتمعان فيه ، أما النفس فتقبل الصور الأضداد دفعة واحدة .

ـ أما الليلة الرابعة عشرة فتبدأ بمعنى السكينة وأنواعها ، فهناك سكينة طبيعية وأخرى نفسية وثالثة عقلية ورابعة الهية . أما الطبيعية فهى اعتدال المزاج فى

---

(٢) قد رتبت خطأ فى نشرة الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين بحيث جعلت الليلة الثالثة عشرة ، ثم تتابع الخطأ فى العدد الترتيبى بعد ذلك الى نهاية الكتاب بأجزائه الثلاثة ـ وحقيقتها أنها الليلة الثانية عشرة ، لكننا نؤثر الابقاء هنا على الترتيب الموجود فى الكتاب لسهولة المراجعة .

العناصر الطبيعية ، وأما النفسية فهى ما نسميه بالروية حين تأتى مماثلة لحكم البديهة ، والسكينة العقلية هى ذى التئام الخواطر والأفكار ، وأما السكينة الالهية « فلا عبارة عنها على التحديد ، لأنها كالحلم فى الانتباه ، وكالاشارة فى الحلم ، وليست حلما ولا انتباها فى الحقيقة » أى أنها سكينة روحانية ٠

وبعد ذلك ينتقل الحـــديث الى ما تشترك فيه الأمم وما تختلف فيه من صفات وخصائص ، فكلها مشترك فى الفطرة الواحدة ، وتأتى بعد ذلـــك أوجه الاختـــلاف ، فاليونان يميزهم الفكر ، والهنـد يميزهم الوهــم (أى الخيال) والعرب ميزتهم الفصاحـة ، والفرس السياسة ، والترك الشجاعة ٠

ــ وفى الليلة الخامسة عشرة حـــديث فلسفى عن « الممكن » و « الواجب » حـــكى فيه التوحيدى عن ابن يعيش الرقى رأيه فيهما ، فقـــال : « الممكن شبيه بالرؤيا لا بدن له يستقل به ، ولا طبيعة يتحيز فيها ٠٠ وكما أن الرؤيا ظل من ظلال اليقظة ، والظل ينقص ويزيد اذا قيس الى الشخص ، كذلك الممكن ظل من ظلال الواجب ، فطوراً يزيد تشابها للواجب ، وطوراً ينقص تشابها للممتنع ، وطـــوراً يتساوى بالوسط » والواجب (ويقصـــد بـــه فى المصطلح الفلسفى ما هو ضرورى الوجود) لا عرض له ، لأنه حد واحد ، وله نصيب من الوحدة بدليل أنه لا تغير

له ولا حيلولة لا بالزمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالطبيعة ولا بالوهم ولا بالعقـــل » ٠٠ الخ ٠ ثم ينتقـــل الحديث بعد ذلك الى نقطة فلسفية أخرى ، هى التفرقـــة بين العقل والحس ، فالأول ثابت والثانى متغير ، ومما قاله فى ذلك أن العقل يوصف بشهادة الحس ، وكذلك الحس يوصف بشهادة العقل ، « الا أن شهادة الحس للعقل شهادة العبد للمولى ، وشهادة العقل للحس شهـــادة المولى للعبد » و « العقل يحكم فى الأشياء الروحانية البسيطة الشريفة من جهة الصور الرفيعة » بالقياس الى الحواس التى تتعلق بالفاسدات البائدات المتغيرات ، وبعد ذلك انتقل الحديث الى مسائل لغوية ٠

– وفى الليلة السادسة عشرة حـــــديث عن الجبر والقدر ، تعليقا على كتاب العامرى المعنون « انقاذ البشر من الجبر والقدر » ٠

وبهذه الليلة انتهى الجزء الأول من كتاب الامتـــاع والمؤانســـة ٠

– ويبدأ الجزء الثانى بالليلة السابعة عشرة ، وفيها بحث لغوى عن الكلمات التى على وزن تفعـــــال (بكسر التاء) وتفعال (بفتح التاء) ٠

ثم ينتقل الحديث فيها عن اخوان الصفا ، ويقـــال ان هذا هو النص الوحيد الذى كشف لنا عن أفراد هـــذه

الجماعة التى ألفت « رسائل اخوان الصفا » المشهورة فى تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ثم نقله القفطى ، وعن القفطى نقله كل من كتبوا عن اخوان الصفا ، وعن هذه الجماعة الفلسفية يقول التوحيدى هنا : « وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله والمصير الى جنته ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ·· وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة فى جميع اجزاء الفلسفة ، علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرستا وسموها رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، وكتموا أسماءهم ··· » ·

عقب على ذلك التوحيدى بذكر بعض الآراء فى تلك الرسائل ، ومنها ما يدحض قولهم فى أن الشريعة من الفلسفة ، لأن الشريعة وحى الهى ، نسلم بها ولا نعللها ، وهى لا تخضع للمقادير ، ولا تشبه العلم الطبيعى ولا علم الهندسة ، ولا تحتاج الى المنطق ، وعند الاختلاف على شىء فى العقيدة لا نلجأ الى العلم « فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشىء المأخوذ بالوحى النازل من الشىء المأخوذ بالرأى الزائل ، والعقل وحده لا يكفى ولا بد معه من وحى ينزل على نبى ، والنبى فوق الفيلسوف ·

ثم يورد ابو حيان رد المقـــدسى على هذا كله ، « فالشريعة طب المرضى والفلسفة طب الأصحـــاء » ـ ثم رد الحريرى على المقدسى فى مقارنة الشريعة بالفلسفة ، ويورد كذلك رأى أبى سليمان المنطقى القائل بأن الشريعة والفلسفة كلتيهما حق ، دون أن تكون احداهما مأخوذة من الأخرى ، وقد تجتمع الشريعة والفلسفة فى رجل واحـد وقد تظهر كل منهما على حدة ·

وينتقل الحديث بعد ذلك الى استطرادات فى الحكمة وفى خصائص الحيوان وغير ذلك ·

ـ والليلة الثامنة عشرة حديثها مجون وهزل ·

ـ والتاسعة عشرة فيها اقــوال حكمية قرئت عـلى الوزير ·

ـ والعشرون تشتمل على احاديث نبوية ·

ـ والليلة الحـــادية والعشرون تتنــاول موضـــوع الغناء والموسيقى ، فلماذا تؤثر الموسيقى فى العقل ؟ وفيها حديث عن حاستى السمع والبصر ·

ـ واما الليلة الثانية والعشرون فقد دار الحــديث فيها حول موضوع فلسفى عويص ، هـــو موضوع الجزئى والكلى وادراكهما والعلاقة بينهما ، ومن ابرع ما قالـــه ابو حيان فى ذلك ـ نقلا عن أبى الحسن العــامرى ـ

« الكلى مفتقر الى الجــزئى ، لا لأن يصـــير بديمومته محفوظا ، بل لأن يصير بتوسطه موجـــوداً ، والجزئى مفتقر الى الكلى ، لا لأن يصير بتوســطه موجوداً ، بل لأن يصير بديمومته محفوظا (أى أن الكلى بحاجــة الى الجزئى ليتجسد فيه وجوداً فعليا ، والجزئى بحاجــة الى الكلى ليدوم) .

ومما قاله فى الكلى والجزئى أيضا أن « ما هو أكثر تركيبا فالحسى أقوى على اثباته ، وما هــو أقل تركيبا فالعقل أخلص الى ذاته » .

وفى هذه الليلة أيضا حديث عن مشكلة الواحـــد والكثير ، وهى مشكلة معروفة فى الفلسفة ، وذات علاقة بالكلى والجزئى ، وفيها أيضا حديث عن أنواع الخطاب : خطاب العاقل للعاقل ، وخطاب العاقل للأحمق ، وحديث عن « العادة » ، وحديث عن الفقر ومعناه الصحيح ، فليس الفقر فى قلة المال ، بل هو فى كثرة الشهوات وان كثر المـــال .

ـ وفى الليلة الثالثة والعشرين روايات عن النبى عليه السلام .

ـ وفى الرابعة والعشرين أحـــاديث عن الحيوان والنبات : أين تكون مواطنها وما طبائعها ؟ ثم حديث عن الروح والنفس .

وأما حديث الليلة الخامسة والعشرين فمنظارة بارعة فيها موازنة بين النظم والنثر ، فبعد مقدمة طريفة عن كون الحديث فى موضوع النظم والنثر كلاما على كلام « والكلام على الكلام صعب ··· لأنه يدور على نفسه ، ويلتبس بعضه ببعضه ، ولهذا شق النحو وما أشبه النحو من المنطق ، وكذلك النثر والشعر » ·

ثم رويت آراء تحبذ النثر وتفضله على الشعر : فالنثر أصل والنظم فرعه ، والكتب المنزلة منثورة ، والوحدة أظهر فى النثر منها فى الشعر ، والنثر طبيعى والشعر صناعى ، وترتيب الكلام فى النثر لا يحتاج الى تكلف ، والنثر من قبل العقل ، ونجوم السماء منثورة ، والأحاديث النبوية نثر ·

وبعد ذلك رويت آراء في تفضيل الشعر ، فله صناعة تقتصر على القلة ، أما النثر ففى وسع الجميع ، والنظم صالح للغناء والحداء ، وشواهد النحو واللغة لا توجد الا فى الشعر والشعراء هم الذين ظفروا بجوائز الخلفاء ·

وتختم المحاورة برأى معتدل ، فلكل من الشعر والنثر فضائله ، ولكل منهما بلاغة ·

ـ وفى الليلة السادسة والعشرين مجموعة من أمثلة ·

ـ وتروى الليلة السابعة والعشرون مجموعة من قصص ونوادر تدل كلها على أثر المصادفات فى مجرى الحياة ، ثم تحكى عن الفأل والطيرة ٠

ــ وفى الثامنة والعشرين ذكر طائفة من أصحاب الطرب ٠

وفى التاسعة والعشرين وفى الثلاثين بحوث لغوية ٠

ــ وفى الحادية والثلاثين كلام فى الحرب ، وكلام فى العقل والجنون ٠

وبهذه الليلة ينتهى الجزء الثانى ٠

ــ ويبدأ الجزء الثالث بالحديث عن الطعام والطعمين ، فيدور الحديث فى ذلك خلال ثلاث ليال : بقية الليلة الحادية والثلاثين ، ثم الليلة الثانية والثلاثين والثالثة والثلاثين ٠

ــ وفى الرابعة والثلاثين حديث عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم فلا بد للحاكم العاقل أن يفتح صدره لما يقوله الناس عنه ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم هى كالعلاقة بين الوالد وولده ٠٠٠ الخ ٠

ــ وفى الخامسة والثلاثين حديث فى الجبر والاختيار ، وفى الحب والشهوة ، وفى النفس والروح ٠

– وتدور الليلة الليلة السادسة والثلاثون حول بحوث لغويـــة ٠

– والسابعة والثلاثون حول بعض الصفات الخلقية وتحديد عناصرها المكونة لها ٠

– وفى الثامنة والثلاثين ، والتاسعـــة والثلاثين ، والأربعين نوادر وأحاديث فيها فطنة وسرعة خاطـــر ٠

ويختم الكتـــاب برســـالتين يوجههمـــا أبو حيان التوحيدى الى الوزير ، ثم برجاء يوجهه الى أبى الوفـــاء المهندس متوسلا مستخيثا ٠

نصوص مختـــارة

١ – في خصائص العرب :

ان العرب أهل بلد قفـــر ، ووحشـــة من الأنس احتاج كل واحد منهم في وحدته الى فكره ونظره وعقله ، وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض ، فوسموا كل شيء بسمته ، ونسبوه الى جنسه ، وعرفوا مصلحة ذلك في رطبه ويابسه ، وأوقاته وأزمنته ، وما يصلح منه في الشاة والبعير ثم نظروا الى الزمان واختلافــه ، فجعلوه ربيعيا وصيفيـــا ، وقيظيـــا وشتويـــا ، ثم علـــموا أن شربهم من السماء ، فوضعوا لذلك الأنواء ، وعرفوا تغير الزمـــان

فجعلوا له منازله من السنة ، واحتاجوا الى الانتشار فى الأرض ، فجعلوا نجوم السماء أدلة على أطراف الأرض وأقطارها ، فسلكوا بها البلاد وجعلوا بينهم شيئا ينتهون به عن المنكر ، ويرغبهم فى الجميل ، ويتجنبون به على الدناءة ، ويحضهم على المكارم ، حتى ان الرجل منهم وهو فى فج من الأرض يصف المكارم فما يبقى من نعتها شيئا ، ويسرف فى ذم المساوى فلا يقصر ، ليس لهم كلام الا وهم يحاضون به على اصطناع المعروف ثم حفظ الجار وبذل المال وابتناء المحامد كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ، ويستخرجه بفطنته وفكرته ، فلا يتعلمون ولا يتأدبون ، بل نحائز (أى طبائع) مؤدبة ، وعقول عارفة ، فلذلك قلت لكم : انهم أعقل الأمم ، لصحة الفطرة ، واعتدال البنية ، وصواب الفكر وذكاء الفهم . (ج ١ ص ٧٢) .

٢ ـ صور لبعض رجال الفكر فى عصره :

(وردت فى حديث الليلة الثانية)

... أما شيخنا أبو سليمان (المنطقى) فانه أدقهم نظراً ، وأقعرهم غوصاً ، وأصفاهم فكراً ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز .

وأما ابن زرعة فهو حسن الترجمة ، صحيح النقل ، كثير الرجوع الى الكتب ، محمود النقل الى العربية جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة ، ليس له فى دقيقها منفذ ، ولا له من لغزها مأخذ ، ولولا توزع فكره فى التجارة ، ومحبته فى الربح ، وحرصه على الجمع ، وشدته على المنع لكانت قريحته تستجيب له ، وغائمته تدر عليه ، ولكنه مبدد منذد ، وحب الدنيا يعمى ويصم .

وأما ابن الخمار ففصيح ، سبط الكلام ، مديد النفس ، طويل العنان ، مرضى النقل ، كثير التدقيق لكنه يخلط الدرة بالبعرة ، ويفسد السمين بالغث ، ويرقع الجديد بالرث ، ويشين جميع ذلك بالزهو والصلف ، ويزيد فى الرقم والسول فما يجديه من الفضل يرتجعه بالنقص ، وما يعطيه باللطف يسترده بالعنف ، وما يصفيه بالصواب ، يكدره بالاعجاب ، ومع هذا يصرع فى كل شهر مرة أو مرتين .

وأما ابن السمح ، فلا ينزل بفنائهم ، ولا يسقى من انائهم ، لأنه دونهم فى الحفظ والنقل والنظر والجدل وهو بالمتبع أشبه ، والى طريقة الدعى أقرب ، والذى يحطه عن مراتبهم شيئان : أحدهما بلادة فهمه ، والآخر حرصه على كسبه ...

وأما مسكويه ففقير بين أغنياء ، وعيى بين ابيناء ، لأنه شاذ ، وانا أعطيته فى هذه الأيـــام « صفو الشرح لا يساغوجى » وقاطيغوريـــاس من تصـنيف صـديقنا بالرى ، قال : من هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غـــلام أبى الحسن العامرى ، وصححه معى ..

فقال (الوزير) : يا عجبا لرجـل صحب ابن العميد أبا الفضل ، ورأى من كان عنده ، وهذا حظه ! قلت : قد كان هذا ، ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبى الطيب الكيميائى الرازى ، مملوك الهمـــة فى طلبه والحرص على اصابته ، مفتونا بكتب أبى زكريـا وجـابر ابن حيان ، ومع هذا كان اليه خدمة صاحبة فى خزانة كتبه ، هذا مع تقطيع الوقت فى حاجاته الضروريـــة والشهوية ، والعمر قصير ، والساعات طائرة ، والحركات دائمة والفرص بروق تأتلق ، وأوطار فى غرضها تجتمع وتفترق والنفوس على فواتها تذوب وتحترق ، ولقد قطن العامرى خمس سنين جمعـــة ، ودرس وأمـلى وصنف وروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنه بينه وبينه سد ، ولقد تجرع على هذا التوانى الصاب والعلقم ، ومضغ بفمه حنظل الندامة فى نفسه ، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كله وبعد ، فهو زكى حسن الشعر نقى اللفظ ، وان بقى فعساه يتوسط هذا الحديث ، وما ارى ذلك مع

كلفه بالكيمياء ، وانفاق زمانه وكد بدنه وقلبه فى خدمة السلطان ، واحتراقه فى البخل بالدانق والقيراط والكسرة والخرقة ، نعوذ بالله من مدح الجود باللسان ، وايثار الشح بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل ، وهذا هو الشقاء المصبوب على هامة من بلى به والبلاء المعصوب بناصية من غلب عليه ... » .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

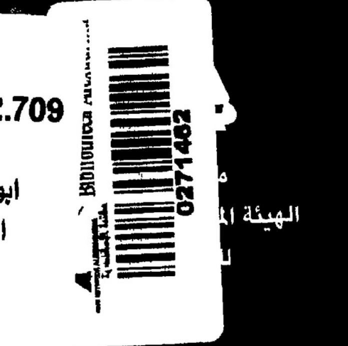
رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٩٤٥

ISBN — 977 — 01 — 4416 — 9

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى
خمسة وعشرون قرشا
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥



الهيئة ال...